

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

بالدور الخطير الذي قام به مع ذلك في تاريخ الحضارة وهذا الشعب هو الشعب العربي .
كانت العربية لغة أدب وشعر منذ أعرق عصور الجاهلية ولكن سرعة انتشارها ترجس في نظرم .
فنتيجو مؤلف «المعزة العربية» - الى الشار الحادية والروحية التي جنتها من الاسلام أكثر منها الى القرار الذي اتخذه الامويون يجعل العربية اجبارية في الوثائق الرسمية وخلال القرن الثاني الهجري بدأ انحلال مراكز الثقافة اليونانية في الشرق الادنى ، وتمخض هذا الانحلال عن «أكبر فوضى في اللغات والاديان» فقد بدأت شعوب عريقة في الحضارة كالمصريين والهنود تتحلل من تراثها الخاص لتعتنق على انسر احتكاكها بالعرب «معتقداتهم واعرافهم وعوائدهم» .

ومنذ ذلك العيد ظهرت شعوب أخرى خلفت العرب في النواحي التي احتلتها «ولكن نفوذ اتباع محمد ظل لازبا لم يتغير» كما يقول جورج ريفسوار ففي جميع نواحي افريقيا وآسيا التي دخلوها من المغرب الى الهند تغفلت ذلك النفوذ في الاعماق الى الابد ولم يستطع فاتحون جدد استقصاء دين العرب ولقمتهم، وقد اكدم .
فنتيجو أن العربية أمست في فارس اللغة الرسمية واتخذها الشعراء أنفسهم أداة لصياغة القريض في حين ظلت اللهجة اليهودية مستعملة في الجبل وقد استمر نفوذ العربية في القرون التالية بل صارت العنصر الجوهرى في الاوردية التي هي لغة الثقافة عند الهندوس والتي يعتبر نصف مفرداتها تقريبا من أصل عربى واذ كان شعراء مثل الفردوسى صاحب الشاهنامه الذي هو عند

لسنا في حاجة الى بيان الدور الذي لعبته اللغة العربية في العصر الجاهلي كأداة للتخاطب وكمصهر لصقل التعابير عن أدق الاحساسات وأرق المراطف إذ يكفي أن نراجع موسوعات اللغة لنلمس ذلك الثراء الذي عز نظيره في معظم لغات العالم ولعل من مظاهر هذا الثراء تدرس حق الدرس الى الآن وتنطوى على كنوز تكشف من القوة الى الضعف من خلال شتى الاعتبارات وكذلك تدرج الاسماء لنفس المسميات في مئات التعابير تبعا لادق مجالى الميز ولا تزال هذه الموسوعات اللغوية لم تدرس حق الدرس الى الآن وتنطوى على كنوز تكشف المجامع اللغوية مع الايام عن مدى ارتباطها بالمعاني الجديدة واتساقها مع مولدات الفكر الحديث .

على أن في مصنفات الفنون والعلوم الرياضية والادبية والفلسفية والقانونية ذخيرة لغوية كانت هي القوام الاساسى للتفاهم بين العلماء، والتعبير عن أعمق النظريات الفنية يوم كانت الحضارة العربية في عنفوان ازدهارها ويكفى أن تصفح كتابا عليا أو فلسفيا لتدرك مدى هذه القوة وتلك السمة الخارقة . ففي العربية اذن «مقدرات» شاسعة لا يتوقف حسن استغلالها الا على مدى ضلاعتنا في فقه اللغة .

والكل يعلم أنه منذ أواخر القرن الهجرى الاول وانبثقت حركة فكرية واسعة اذكت جامعات الشرق، ولم تستفد من هذه الحركة - كما يقول مؤلف «المعزة العربية» - السريانية ولا الفارسية ولا اليونانية وانما استفاد منها شعب عاش لحد ذلك التاريخ خارج حدود العالم المتمدن ولم يكن في الظاهر ما يحدوه الى الاضطلاع

الفرس بمثابة هو ميروس عند الاغريق والذي كان متضلعا في العربية «عادوا يقرضون الشعر منذ القرن العاشر الميلادي بالفارسية، فان معظم المصنفات العلمية ظلت تحرد بالعربية مثل موسوعة الرازي الطبية وغالب مؤلفات ابن سينا .

وقد اوضح كوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب» (الطبعة الفرنسية ص 473) ان العربية أصبحت اللغة العالمية في جميع الاقطار التي دخلها العرب حيث خلقت تماما اللهجات التي كانت مستعملة في تلك البلاد كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية ... ووقع نفس الحادث كذلك في فارس مدة طويلة ورغم انبعثت الفارسية بقيت العربية لغة جميع المثقفين وقد أكد جوستاف أيضا (ص 174) بان الفرس يدرسون اليوم (أي أواخر القرن التاسع عشر) العلوم والدينيات والتاريخ في مصنفات عربية .

هذا وقد عربت أهم المصنفات اليونانية في عهد الخلفاء العباسيين حيث انكب العرب على دراسة الآداب الاجنبية بحماس «فاق الحماس الذي أظهرته أوروبا في عهد الانبعاث» وقد خضعت اللغة العربية لمقتضيات الإصلاح الجديد فانتشرت في مجموع انحاء آسيا واستأصلت نهائيا اللهجات القديمة (جورج ريفوار في كتابه «وجوه الاسلام») وقد قضت العربية حتى على اللاتينية لا سيما في شبه الجزيرة الايبيرية (اسبانيا والاندلس) حيث ندد الكاتب المسيحي الفارو وهو من رجال القرن التاسع الميلادي بجهل مواطنيه باللاتينية فقال : «ان المسيحيين يتملنون بقراءة القصائد وروائع الخيال العربية ويدرسون مصنفات علماء الكلام المسلمين لا بقصد تفنيدها بل من أجل التمرن على الاسلوب الصحيح الاثني في العربية وجميع الفتيان المسيحيين المبرزين لا يعرفون سوى اللغة العربية والادب العربي فهم يقرأون الكتب العربية ويدرسونها بكامل الحرارة ويتناقشون على اقتناء المكاتب الفخمة مهما كلفهم ذلك من ثمن ويعلمون على الملأ حيثما وجدوا ان الادب العربي شيء بديع ... ما أعظم الألم ! لقد نسي المسيحيون حتى لغتهم الدينية ولا تكاد تجد واحدا بين الالف يحسن تحرير رسالة باللاتينية الى صديق له . أما باللغة العربية فانك تجد افواجا من الناس يحذقون التعبير بهذه اللغة بكامل الاقامة بل انهم يقرضون من الشعر ما

يفوق من الوجهة الفنية اشعار العرب أنفسهم وقد نقل الاستاذ ليفي بروفنصل مقتطفات من كتاب الفارو في كتابه حول «حضارة العرب في اسبانيا» .

وقد أكد المؤرخ دوزي في كتابه «تاريخ مسلمي اسبانيا» (ج I ص 317) أن أهل الذوق من الاسبان يهترهم نصاعة الادب العربي واحتقروا البلاغة اللاتينية وصاروا يكتبون بلغة العرب الفاتحين .

وقد نقل دوزي عن صاحب كتاب «الوسى موزار ايبس دو طوليد» ان العربية ظلت أداة الثقافة والفكر في اسبانيا الى عام 1570 ففي ناحية بلنسية استعملت بعض القرى الاسبانية العربية كلفة لها الى أوائل القرن التاسع عشر وقد جمع أحد أساتذة كلية مدريد 1151 عقدا في موضوع البيسوع محررا بالعربية كمنودج للعقود التي كان الاسبان يستعملونها في الاندلس .

ولم يفت المؤرخ «فياردو» الذي كتب منذ نحو القرن تاريخ العرب في اسبانيا أن ينوه بشراء اللغة العربية الخارق وشاعرية العرب الفياضة حتى ان معظم سكان شلب - وهي اليوم جنة البرتغال - كانوا شعراء في نظر القزويني بل يؤكد دوزي انهم كلهم كانوا شعراء .

ان اللغة العربية التي بلغت مبلغا كبيرا من المرونة والثروة في العهد الجاهلي أدركت في القرن الرابع الهجري اي في عنفوان العصر العباسي أوج كمالها وقد وصف زكي مبارك روعة النثر الفني العربي في هذا القرن ووصف فيكتور براد اللغة العربية في ذلك العصر بأنها أغنى وأبسطن وأقوى وأزرق وأمتن وأكثر اللهجات الانسانية مرونة وروعة فهي كنز يزخر بالمفاتيح ويفيض بسحر الخيال وعجيب المجاز رقيق الحاشية مهذب الجوانب رائع التصوير ، وأعجب ما في الامر - وهو شيء لا نظير له عند الشعوب الاخرى - أن البدو كانوا هم سدنة هذه الذخائر «وجهاذة النثر العربي جبلة وطبعاء ومنهم استمد كل الشعراء ثراءهم اللغوي وعبقريتهم في القريض .

ان نفوذ اللغة العربية أصبح بعيد المدى حتى ان جانبا من اوروبا الجنوبية أيقن بأن العربية هي «الاداة الوحيدة لنقل العلوم والآداب» كما يقول جورج ريفوار الذي أوضح أيضا ان رجال الكنيسة اضطروا الى تعريب مجموعاتهم القانونية لتسهيل قراءتها في الكنائس الاسبانية وان «جان سيفيل» وجد نفسه مضطرا الى أن يحزر بالعربية معارض الكتب المقدسة ليفهمها

الناس . (I)

أما في فرنسا فقد أكد جوستاف لوبون في حضارة العرب (ص 174) ان للعربية اثاره مهمة في فرنسا نفسها وقد لاحظ المؤرخ «سديو» عن حق ان لهجة ناحيتي اوفيرني وليموزان زاخرة بالالفاظ العربية وان الاعلام تنسم في كل مكان بالطابع العربي .

مركان من الطبيعي ان يزود العرب الذين كانوا قادة المتوسط منذ القرن الثامن الميلادي - كلا من فرنسا واطاليا بمعظم مصطلحاتها البحرية على أنها تركت اثرها في مصطلحات الجيش والادارة والصيد والعلوم وغيرها .

وقد لوحظ نفس التأثير في صقلية حيث كان الملك روجير النرمندي يتسربل بالازياء الشرقية ويرقم جبهته الرسمية بالحروف العربية وكان كل من خاتمه ونقوده يحمل الكتابة العربية والنرماندية وقد كان اميرال صقلية متضلعا في العربية وبالجملة وقد صارت العربية - كما يقول الاستاذ فنتيجو - لغة دولية للتجارة والعلوم .

أما نسبة هذا التأثير فقد ذكر بعض الباحثين ان المفردات العربية التي دخلت الى الاسبانية تقدر بربعمحتويات قاموس الاسباني بينما دخلت الى البرتغالية ثلاثة آلاف كلمة عربية وقد صنف الاب ساسا باتيستا الذي ولد في دمشق من أبوين عربيين قاموسا عام 1789 جمع فيه الكلمات التي اقتبسها البرتغال من العربية وهذا القاموس يقع في مائة وستين صحيفة كما ألف دوزي وانجلمان قاموسا للكلمات الاسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية وتوجد في مكتبة الاسكوريال معاجم عربية يونانية وعربية لاتينية وعربية اسبانية صنفيها علماء مسلمون (حضارة العرب ص 166-474) وقد كان للمغرب حظه في هذا التأثير اللغوي على الاندلس الذي استمر حكمه لها نحو من ثلاثة قرون أما البرتغاليون الذين عاشوا في المغرب فقد ذكر شافروبير في كتابه عن تاريخ المغرب (ص 273) ان الجالية التي كانت بالمغرب في القرن السادس عشر كانت تتراسل بعربية حشوها تعابير مغربية وتكتب مراسلاتها بالحروف العربية .

وهناك لغات أخرى كالمالطية اقتبست معظم مفرداتها من العربية وقد أمكن استماعنا في السنوت الاخيرة لخطاب فاهت به شخصية مالطية رسمية لم يعسر فهمه على المستمعين لاسيما وان اللهجة المالطية تتجانس مع لهجات المغرب العربي ومعلوم أن الكثير من اللهجات تتقارب في العالم العربي نظرا لانتسابها جميعا الى اللغة البونيفية كما يتجلى ذلك من دراسة الكتابات التي عثر عليها في البرازيل (2) وقد أكد جوستاف لوبون (ص 472) «ان العربية من اكثر اللغات انسجاما فهي وان كانت تحتوى على عدة لهجات كالشامية والحجازية والمصرية والجزائرية غير أن هذه اللهجات لا تختلف فيما بينها الا بفوارق جد طفيفة بينما نلاحظ أن سكان قرية في شمال فرنسا لا يفهمون كلمة من اللهجات المستعملة في قرى الجنوب نرى سكان شمال المغرب الاقصى يتفاهمون بسهولة مع سكان مصر والحجاز » وقد قال الرحالة بوركارد بأن كل من عرف احدى هذه اللهجات فهم سائرها بدون عناء .

وقد استكشفت في صقلية لوحة مسيحية محروقة بالعربية ومؤرخة بالتاريخ الهجري بعد انتهاء الاحتلال العربي بستين سنة .

واللغة الاغريقية نفسها اقتبست الشيء الكثير من العربية غير ان المقتبسات اتخذت شكلية يعسر معها ارجاعها الى الاصل العربي .

ومعلوم ان الجامعة الاوربية كانت عاملا مهما في ذبوع اللغة العربية التي أصبحت في العصور الوسطى لغة الفلسفة والطب ومختلف العلوم والفنون بل أصبحت لغة دولية للحضارة ففي عام 1207 م. لوحظ وجود معهد في جنوب أوروبا لتعليم اللغة العربية ثم نظم المجمع المسيحي العالمي بعد ذلك تعليمها في اوروبا وذلك باحداث كراسي في كبريات الجامعات الغربية وفي القرن السابع عشر اهتمت اوروبا الشمالية والشرقية اهتماما خاصا بتدريس اللغة العربية ونشرها ففي 1636 قررت حكومة السويد تعليم العربية في بلادها ومنذ ذلك انصرفت السويد الى طبس ونشر المصنفات الاسلامية وبدأت روسيا تعتنى بالدراسات

(I) منذ القرن العاشر الميلادي تبنى اليهود لغة الفاتحين العرب كلغة علمية في افريقيا وغيرها ويجدر أن نذكر الحبر يهودا بن قريش لما يمتاز به كتابه في فقه اللغة المقارن والذي وجهه في ذلك العهد الى بيعة فاس (كودار ص 454) .

(2) راجع بحثنا في العدد الثاني من مجلة « اللسان العربي » .

استكمال عقيدتها جوهرها وتمبيرها وهذه ظاهرة لاسيما اذا
اعتبرنا - مع مؤلف «وجوه الاسلام» - مدى مساهمة
الفلسفة الاسلامية في تكوين علم الكلام خلال القرون
الوسطى والدور الذي قام به في ذلك كل من ابن سينا
وابن رشد وما كان لهما من تاثير على أشهر مفكرى
المسيحية .

وإذا كان قد قدر للعرب أن يقوموا بدور ما في عصر
الجماعية فانما كان ذلك عن طريق اللغة التي كانت
أنصع عنصر في حياة العرب وقد دعا فولفنجسن في
كتابه «تاريخ اللغات السامية» المشاركة المتكلمين بلغة
الضاد الى درس فقه اللغات السامية للاختلاف بمظمة
أجدادهم وبالذور الذي قاموا به في حضارة العالم
القديم، ثم أكد ان المستشرقين الذين نددوا بالعروبة
و«الإشعاع» العربي لم يبدفوا الا لغايات دينية
واستعمارية .

وقد عبر الاستاذ ماسينيون عن نفس الفكرة قائلا :
ان المنهاج العلمي قد انطلق اول ما انطلق باللغة
العربية ومن خلال العربية في الحضارة الاوربية .

ثم قال : «ان العربية استطاعت بقيمتها الجدلية
والنفسية والصوفية أن تضي سربال الفتوة على
التفكير الغربى كما انعمت «ألف ليلة وليلة» في القرن
السابع عشر الميلادى ذهنية أوروبا التي اتخمتها أساطير
الاغريق والرومان » .

ثم يواصل ماسينيون وصفه الرائع قائلا : ان اللغة
العربية أداة خالصة لنقل بدائع الفكر في الميدان
الدولى وان استمرار حياة اللغة العربية دوليا لهو
العنصر الجوهرى للسلام بين الامم في المستقبل .
مدير المجلة

عبد العزيز بنعبد الله

الشرقية والعربية على الخصوص فى عهد البطررس الاكبر
الذى وجه الى الشرق خمسة من الطلبة الروسين وفى
عام 1769 قررت الملكة كاترينا اجبارية اللغة العربية
وفى عام 1816 أحدث قسم اللغات السامية فى جامعة
پتروكراد .

وقد اتجه اقتباس اوريا من العربية نحو الميدان
العلمى فدخلت الى اللغات الاوربية كثير من المصطلحات
العربية مثل الكحول والاكسير والجبر واللوغريتم وقد
استمد الاسبان - حسب ليفى بروفنصال - معظم أسماء
الثرىاحين والازهار من العربية ومن جبال اليرانس
انتقلت مصطلحات العلوم الطبيعية الى فرنسا مثل
البرقوق والياسمين والقطن والزعفران ومجموعة
مصطلحات الرى تقريبا هى كذلك من أصل عربى كما
تحمل الحللى فى اسبانيا أسماء عربية ويتجلى نفس
التاثير فى الهندسة المعمارية وبالجملة فقد استمدت
اسبانيا وبواسطتها أمريكا اللاتينية من اللغة العربية
الشئ الكثير من مقوماتها اللغوية ثقافيا واقتصاديا
واجتماعيا .

وقد لاحظ عالم ايطالى كبير ان معظم التعابير العربية
التي تغلغلت بكيفية مدهشة فى لغة روما لم تنتقل عن
طريق التوسع الاستعمارى ولكن بفضل اشعاع الاسلام
الثقافى .

بل ان الاصلاح الخاص بالكنيسة تاثر الى حد بعيد
بالطابع العربى فقد اعترف البارون كارادوفو مؤلف
«مفكرى الاسلام» وهو مسيحي متحمس بأن الاسلام علم
المسيحية منهاجا فى التفكير الفلسفى هو ثمرة عبقرية
ابنائها الطبيعية وأن مفكرى الاسلام نظموا لغة الفلسفة
الكلامية التي استعملتها المسيحية فاستطاعت بذلك